

المكان في تكوين الهوية

◆ نظام مارديني

مقاربة موضوع «الهوية» معرفياً في الفضاء السوري والهلال الخصيب، أشبه بعملية دخول في الفاصلة الأهم والأخطر من الطريق الطويل الشائك الذي يفترض أنه يفضي إلى بناء الدولة الحديثة ذات الطابع المدني الديمقراطي.

فمنذ بدايات تشكلها في القرن السابع عشر تقوم الدولة المدنية الحديثة على ثلاثة أسس رئيسية: حدود جغرافية سياسية تحدد كيانها، ومواطنون من سكانها، وقوانين يتساوى أمامها مواطنو الدولة بغض النظر عن جنسهم أو لونهم أو عرقهم أو دينهم أو لغتهم.

يقول الشاعر السوري أدونيس إن «الهوية الثقافية، مثل الحب، هي حوار، ارتباط بين الذات والآخر. فالأخر ليس حاجة حورية فقط: إنه عنصر مشكل للذات. ولكن هذه الذات مرتبطة بالمكان، أي بالبيئة الطبيعية التي تشكل هوية الفرد والجماعة.

صحيح أن عملية البحث عن هذه الهوية لا تخلو من التحديات والصعاب، إلا أنها في الوقت نفسه فرصة ضرورية للتعرف إلى مواطن القوة الكامنة في داخل الفرد والمجتمع واستثمارها إيجابياً.

يتحدث هارالد ميللر مؤلف «تعايش الثقافات»، الحائز على صموئيل هنتنغتون، عن الدولة بوصفها إينة الجغرافية الملموسة والتي لا يمكن تجاوزها أو تجاوز حكم الأسماء فيها، إلا أن «الثقوب السوداء» الذي تركه الصراع في العراق وسورية حاول أن يسقط طرحه أرضاً. لكن التأسيس الحقيقي لنظرية تعدد جبال المكان (البيئة الجغرافية) في تحديد مفهوم الهوية وتشكيل شخصية الإنسان، ينبغي أن يتأسس على أن الهوية مفهوم مستقر وثابت، ومفهوم قلق يمثل نقطة تقاطع لمؤثرات عديدة وظروف مختلفة، لكنها لا تتغير بتغير الزمان والمكان أو تختلف باختلافها.

فالعناصر الأساسية في تكوين الهوية كتكتسب صفة سيرويتها وتحولها الدائم داخل حدود جغرافية واحدة.

ليس ثمة مجموعة اجتماعية معزولة البتة، فهي تقيم علاقات مع مجموعات أخرى على الأرض ذاتها، وهذا ما يؤدي بالتأكيد إلى وعي تمايزها، لكنها تقيم أيضاً مبادلات. كما أن استعارات الهويات الجماعية وتحولاتها هي سيرويات اجتماعية ديناميكية وفي تطور مستمر.

إذ تبني بالتجمع والتناقض. فالإي جانب الاختلافات الناتجة عن البعد ثمة اختلافات ناجمة عن القرب «رغبة في التناقض والتمايز وتحقيق الذات».

ميز علم النفس الاجتماعي العلاقات بين الهوية الاجتماعية والانتماء إلى الجماعة، فيمكن أن نميز جماعات الانتماء من جماعات المرجعية. ودلت أبحاث تاغل وترنر على أن الأفراد يميلون إلى بناء هويتهم الاجتماعية انطلاقاً من معطيات، فهم يبحثون عادة عن هوية اجتماعية إيجابية مبنية على مقارنات جيدة يمكن أن تُفقد داخل مجموعات انتماءاتهم وبعض مجموعات مرجعياتهم، وعندما لا تحقق مجموعة الانتماء تقويمها إيجابياً يحاول الآخر مغادرة مجموعته أو جعلها أكثر إيجابية.

الهوية ليست وجوداً سابقاً علينا، يتلبسنا ويحكم إغلاق دائرتنا حولنا فحسب، إنما هي وجود يتشكل بناء على ما نتلقاه من تعليم وما نرثه من معارف وما نتعرض له من مؤثرات، وجود يكبر بنا ومعنا، نشكله وبشكلنا في أن واحد، أي هو ذاك التفاعل العمودي والأفقي بين الفرد والأرض، ويحصل بالتطور لا بالخلق كما يلاحظ عالم الاجتماع النهضوي أنطون سعاده في مؤلفه «قيم نشوء الأمم».

الهوية ليست إذن أساس وحدة المجموعة، بل هي حاصل سيروية وتتابع التماثل والتميز الذي تسعى المجموعة من خلاله إلى تأسيس تماسكها وإبراز موقفها بالنسبة إلى مجتمعات أخرى. فالفرد من هذا المنظار هو ابن البيئة الجغرافية السورية ونتاج التاريخ السوري وتحولاته التراجيدية وتناقضاته وصراعاته وإشكالياته... وتحديات البيئة الطبيعية تفرض على السلوك وعلى طبيعة الشخصية الفردية والاجتماعية شروطها. لكن، بقدر ما يتكيف الفرد والمجتمع مع معطيات البيئة بقدر ما يتكيف مع تحدياتها وتحولاتها، وهذا لا يعني البتة أن البيئة الطبيعية وإرث التاريخ السياسي والاجتماعي لا يكفيان لحقيقة ميول الأفراد والجماعات للمجتمع السوري. وبهذا المعنى يعتبر المكان مادة الذاكرة وإطارها، وهو منظومة تفاعل بين الجماعات والأرض، كما يشير إلى ذلك سعاده في كتابه «نشوء الأمم» إذ يعتبر أن «الأمة جماعة من البشر تحيا حياة موحدة المصالح، موحدة المصير، موحدة العوامل النفسية - المادية في قطر معين يكسبها تفاعلها معه، في مجرى التطور، خصائص ومزايا تميزها عن غيرها من الجماعات».

هكذا، حين تكون إزاء الثنائية الكبرى، الأرض والإنسان، إنما تكون في الحقيقة إزاء وجود مجتمعنا السوري ومصيره. فالجماعات البشرية تتفاعل في إطار أمكنتها وعبرها. والذين يتفاعلون في وحدة حياة في المكان الواحد يخترعون عوامل وحدتهم من لغة وتقاليدهم وتاريخ، وهي نتاج تجربة حياة مشتركة لفترة تمتد لآلاف السنين.

غير أن ذلك كله لا يعني أن ثمة عناصر جوهرية في تركيب الهوية تتصل بالدين واللغة والقيم الاجتماعية المختلفة. رغم أنها مؤثرات ناتجة من مجرى تطور المجتمع مع نفسه، مؤثرات تمكن من استيعاب المتغيرات الطارئة كمحددات جديدة للهوية أو محددات جديدة لا يمكن تعريف الهوية أو تحديد علاقتها بالعصر في معزل عنها.

لا تظهر الهوية الاجتماعية إذن على أنها انعكاس بسيط أو تجاور وتجميع في ضمير الفرد وانتمائه وأدواره الاجتماعية. إنها كل ديناميكي (نشط فاعل) تتفاعل جميع عناصره في تكاملية أو في صراع. وفي نتج من «استراتيجيات انتمائية» يحاول الفرد من خلالها الدفاع عن وجوده ورؤيته الاجتماعية، ودمجه في المتحد، وفي الوقت نفسه يقوم ذاته ويبحث عن تماسك المنطقي الخاص به.

إن أكبر تحدٍ يجابه سورية هي محاولة الجماعات صناعة مزيد من الهويات الفرعية التي تقسم الشعب إلى مسميات جديدة وعناوين تتيج هي الأخرى لصناعها احتلال مقعد هنا أو هناك. غير أن اعتقاد الجماعات الطائفية والمذهبية والإثنية بأن انفصالها بعضها عن بعضها الآخر، سيحل المشاكل التي تعاني منها هو وهم هائل، فالانفصال سيحكم عليها جميعاً بمصير الضعف والانحسار من ساحة الفعل التاريخي في المنطقة إلى أبد الأبد.

إن تثبيت الهوية ليس مجرد إظهار وانعكاس للوحدة الثقافية والاجتماعية لدى مجموعة ما، بل إحدى الوسائل التي تحاور المجموعة إلى تبني وحدتها بها. هذا المقدس المحرر يفتقر على أعضائه صورة مجموع موحّد متجاوزاً التنوعات الحقيقية.

سورية... عين على موسكو وعين على شعبا

◆ د. سليم حربا

يبقى المشهد الوطني التفاعلي فاعلاً من موسكو واللقاء التشاوري إلى القنيطرة وشقيقتها شعبا، ففي موسكو المنتدى التشاوري بين الحكومة السورية والمعارضات الذي كسر الجليد وأذاب الصقيع، على حرارة الاتفاق على الثوابت الوطنية ومهد الطريق بحرفية وموضوعية ونزاهة وحرص روسي وبراءة سورية وطنية حملها وقد الحكومة السورية بعقل منفتح وقلب مفتوح ويد ممدودة ومروءة وحرص ومرونة يتقدم فيها الوطن، يطو ولا يُعلَى عليه، فكان حدثاً نوعياً وقطاراً سوريا بدأ يُقَلَع باتجاه دمشق ويحمل السوريين الذين تنتظم دقات قلوبهم وفق ساعة وتوقيت الشعب السوري وإرادته، وعلى وقع أقدام حُماة الديار وقرارهم في مواجهة الإرهاب ودحره.

أثبت قطار الوطن أنه يتسع للجميع وأن إرادة تحركه وعجلاته وخارطة طريقه إلى دمشق أكبر من المسامير العصى التي توضع في عجلاته، وأسرع من محاولة البعض الآخر سحبه إلى الخلف لإيقافه، وأدق في توقيت إقلاعه من امتعاض ورهان البعض الذين ينتظرون في محطات أنقرة والرياض والدوحة.

المهم أن صدق النوايا كان غالباً وأغلبية، وأن توهم وتوهم البعض ووزنهم الافتراضي قد انكشف وذهب الشحم والورم، وأن منتدى موسكو كان فرصة مباشرة لقراءة ما في القلوب والعيون، بعيداً من

روبرت فورد وتلامذته الأغبياء وقصاصات الورق والإملاء وتهديد السلافة والمشيخات والأمرء فكان سوري المبنى والمعنى والهوى والمنى والهدف والنتيجة، لذلك سيبقى وينطلق ويتسارع على الصراط الوطني المستقيم تاركاً خلفه ضغاف القلوب والنفوس الأمانة بالسوء والعقول المتكسفة في صحراء التيه السعودية القطرية والمتجمدة في ثلاثيات أردوغان «الداعشية».

إنه لقاء تشاوري وتشاوري تحاوري مأمول، مؤشرات مشيرات لكل سوري قلبه يبيض وطنية ويدها يدُ على الزناد في مواجهة الإرهاب والأخرى ممدودة للمصالحة والمصافحة والسماحة، أما عيناه فأحداها على موسكو في حين تنظر الأخرى إلى الرد على عدوان القنيطرة بقلب يتأهب شوقاً إلى شعبا وعقل عبقري يُحْكَم الخطة ورجال قهروا المستحيل وحولوا الغضب الساطع والوعد الصادق إلى حقيقة أذرت بعنجهية العدو وعربدته وغروره وقطعت يده

جاءت عملية شعبا النوعية الفاعلة والمحسوبة والدقيقة والسريعة والصاعقة لتضرب أهم نقاط قوة العدو بالرغم من تحسبه وتأهبه

زار برّي وسلام وباسيل وعرض معهم التطورات والعلاقات الثنائية

بروجردى: نحرص على أمن المنطقة واستقرارها والرئاسة شأن لبناني داخلي

التعاون الدفاعي بين البلدين، وأيضاً الزيارة التي قام بها كبير مستشاري قائد الجمهورية الإسلامية الإيرانية الدكتور علي أكبر ولايتي للعاصمة الروسية موسكو واللقاءات المهمة التي أجراها مع المسؤولين الروس».

وفي السراي الحكومية، التقى الوفد رئيس الحكومة تمام سلام، وقال بروجردى: «عبرنا لدولته عن تقديرنا وتأميننا عالياً الدور الإنساني البناء الذي تقوم به الجمهورية اللبنانية الشقيقة طوال السنوات الماضية في احتضان ومؤازرة مئات الآلاف من المهجرين والنازحين السوريين الذين أتوا إلى لبنان هرباً من الأزمة الدامية التي تعصف بسورية في هذه المرحلة». وأضاف: «درس أفضل السبل الآيلة إلى تطوير العلاقات الثنائية كان من أهم الأمور التي ناقشناها خلال هذا اللقاء، ونظراً إلى الدور الحيوي والمهم الذي يحظى به مجلس الشورى الإسلامي في الجمهورية الإسلامية الإيرانية في بنية النظام السياسي في إيران، فقد أكدنا لدولته أنّ لدينا كامل الاستعداد لإداء الدور الحيوي والجاد والبناء في مجال دعم كل ما من شأنه أن يعزز العلاقات بين لبنان وإيران ويطورها على مختلف الأصعدة، وخصوصاً

أكد رئيس لجنة الأمن والسياسة الخارجية في مجلس الشورى الإيراني علاء الدين بروجردى موقف بلاده «الراشح والثابت في دعم كل ما يرسخ الأمن والهدوء والاستقرار في الربوع اللبنانية»، لافتاً إلى أنّ الاستحقاق الرئاسي «شأن لبناني».

وجال بروجردى، على رأس وفد ضمّ السفير الإيراني محمد فتحعلي، على المسؤولين في جولته من مقرّ الرئاسة الثانية في عين التينة، حيث التقى رئيس مجلس النواب نبيه بري، وقال بعد اللقاء: «أكدنا الموقف الراشح والثابت للجمهورية الإسلامية الإيرانية في دعم كل ما يرسخ الأمن والهدوء والاستقرار في الربوع اللبنانية. كما أننا حرصنا تماماً على الوحدة الوطنية الداخلية في لبنان الشقيق، وفي هذا الإطار نحرص دوماً على بناء العلاقات المتوازنة والمتعادلة مع كل التيارات السياسية الفاعلة والمؤثرة على الساحة اللبنانية».

وأضاف: «اغتنمنا هذه المناسبة لكي نقدم لدولته تقريراً مفصلاً عن آخر التطورات في شأن العلاقات الثنائية بين إيران وروسيا، وخصوصاً في ظلّ الزيارة التي قام بها مؤخراً وزير الدفاع الروسي للجمهورية الإسلامية وما أثمرته من توقيع اتفاق مهم في مجال

خفايا

استنكرت أوساط 8 آدار إطلاق الرصاص في بيروت وضاحتها الجنوبية أثناء إطلاقه الأمين العام لحزب الله السيد حسن نصرالله أمس في احتفال تأبين شهداء القنيطرة، لكنها استغربت أن يطلب وزير العدل أشرف ريفي بالذات، من القضاء ملاحقة هؤلاء، وهو كان يتباهى بأن قادة محاور طرابلس هم أبناءه رغم ما جرّه من ويلات على المدينة وأهلها، وقد أدينوا لاحقاً بأنهم ينتمون إلى منظمات إرهابية تنفذ مخططات خارجية لإيقاع الفتنة في لبنان، تمهيداً لتزويقه وجعله إمارات متناحرة.

المجالات الاقتصادية والتجارية. وقال بروجردى: «اغتنمنا هذه المناسبة لتقديم لمعالیه عرضاً سهلاً عن آخر التطورات المتعلقة بالملف النووي السلمي الإيراني، وعن المفاوضات الجارية حالياً بين إيران ومجموعة الخمسة زائد واحد في هذا الإطار».

وأضاف: «أكدت للوزير باسيل أننا، كنواب في مجلس الشورى الإيراني، نؤيد بكل قوة، كل ما من شأنه أن يرسخ ويعزز العلاقات الطيبة مع لبنان الشقيق».

ورداً على سؤال حول الاستحقاق الرئاسي اللبناني، أجاب: «هذا الاستحقاق هو استحقاق داخلي لبناني، لكننا نأمل أن نجد حلاً سريعاً ومخرجاً قريباً له». وسئل بروجردى: أنتم متهمون بالوقوف خلف العملية التي قام بها حزب الله في شعبا هل هذا الأمر صحيح؟ فأجاب: «اعتقد أنّ القاضي والداني يعرف أنّ حزب الله هو جزء أساسي من مكونات المجتمع السياسي في لبنان ولديه نواب في البرلمان اللبناني ولديه وزراء في الحكومة اللبنانية الموقرة. ونحن في الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعلى غرار العلاقات التي تربطنا بكل مكونات المجتمع اللبناني العزيز، لدينا هذه العلاقات القوية والمعززة مع حزب الله».



...ومجتمعاً إلى سلام في السراي (تتوز)



بروجردى والوفد مع برّي في عين التينة (حسن إبراهيم)



باسيل مجتمعاً إلى سفير سورية

رسالة عاجلة من حكومته، والاسترالي غلين مايلز. والتقى وزير الخارجية المفوض الأوروبي للسياسة الأوروبية للحوار وشؤون التوسع يوهانس هان، والمفوض الأوروبي للمساعدات الإنسانية كريستوس ستيليانيديس، ترافقهما سفيرة الاتحاد الأوروبي أنجلينا يوهانس هان، وفود من الاتحاد الأوروبي، وجرى البحث في موضوع الإرهاب والوسائل التي يمكن أن يقدمها الاتحاد الأوروبي إلى لبنان من أجل مكافحته. كما جرى البحث في موضوع النازحين السوريين.

وفي مجال آخر، وقع وزير الخارجية مشروع قانون تعديل نظام الوزارة، في إطار حملته الإصلاحية لتعديل نظامها وتحديثه، تحقيقاً للمساواة بين الرجل والمرأة، إذ طلب إلغاء الفقرة 4 من المادة 12 من النظام المذكور، التي تشترط أن تكون المرشحة إلى السلك الخارجي غريبة، وأحال مشروع مرسوم القانون إلى مجلس الوزراء لإقراره.

شكوى لبنانية إلى مجلس الأمن ضدّ «إسرائيل»

علي عبد الكريم من الخارجية: لبنان لا يستطيع مواجهة الإرهاب من دون التنسيق مع سورية

وردت إسرائيل والتفكير في عدوان أوسع». وأشار إلى أنّ البحث تطرق «إلى الأوضاع والإجراءات بالنسبة إلى السوريين في المطارات والسفارات اللبنانية في الخارج وعلى الحدود وضرورة معالجة هذا الأمر في أقصي سرعة، والتنسيق مع الحكومة السورية والأجهزة المعنية في الدولتين اللبنانية والسورية». وقال: «اطلعتني الوزير باسيل على أنه عمّم على العنات الدبلوماسية والخارج وطلب منها إبلاغ شركات الطيران بأن لا ضرورة أبداً لأي تأشيرة دخول أو سمة أو فيزا لسوريين في الخارج بالنسبة إلى الذين يريدون الحجّ إلى لبنان أو عبره. وابلغت الوزير باسيل في هذا الأمر يحتاج إلى وضوح وتنسيق أكثر، وخروج من الإجراءات التي صارت عبئاً على البلدين وحدوديهما وعلى المواطنين السوريين واللبنانيين، وشكل نقرة أو ردة فعل سريعة، وهذا ما تحتاج إليه العلاقة الأخوية بين البلدين الشقيقين. والتفأول كبير بشأن الإجراءات سنتخ، سواء عبر الأمن العام أو مدير المفكف معالجة هذا الأمر والتنسيق بين الجهتين اللبنانية والسورية والأجهزة المعنية عند طرفي الحدود».

ورداً على سؤال حول تطوّر الأمور بعد عملية شعبا، لفت سفير سورية إلى «أن إسرائيل هي التي تستشعر خطر ما ارتكبتها في حق سورية ولبنان والمنطقة، وكشفت بوضوح أنها ظهير وداعم ومشقّق وقائد للإرهاب الذي

يضرّب في سورية ولبنان والمنطقة، لهذا فإن الردّ عليها من داخل الأراضي اللبنانية المحتلة في مزارع شعبا، وباللقاء والمهنية والجرأة والنجاح الهائل، هذا كله جعل القيادة المتطرفة في إسرائيل ووعاء هذه القيادة يرتدون، وبالتالي يستشعرون نتائج ما أقدموا عليه في العدوان في القنيطرة الذي ذهب ضحيته شهداء المقاومة في لبنان أو الذين تمّ استهدافهم سابقاً بالعدوان المفتوح الذي تقوم به إسرائيل ضد سورية وشعبها والواقع فيها، سواء مباشرة أو عبر الإرهاب السوري واللبناني، أي النصرة وداعش وكل مسلمات القاعدة التي تضرب أيضاً في سيناء والعريش وفي غيرها، هي مكمل لما يجري في الجولان وعلى الحدود السورية - اللبنانية، وفي كل أذرع إسرائيل التي تحمل اسمها مباشرة أو اسم الإرهاب التكفيري.

ولهذا فإنّ يستشعر الخطر جراء محور متكامل للمقاومة وجرءا وعي يكبر لدى الشارعين العربي والإسلامي والرأي العام الدولي. هذا الاتحاد الذي يستشعر خطر الأميركيين والأوروبي وفي الخليج وتركيا، كله يشكل صورة مضافة إلى ما قدمته العملية البطولية التي قامت بها المقاومة في شعبا».

وإذ اعتبر «أنّ قوة لبنان واستقراره وأمنه في رصيد قوة سورية وأمنها»، أكد على أنّ لبنان «لا يستطيع مواجهة الإرهاب الذي يضرب في أكثر من منطقة من دون التكامل والتنسيق مع سورية».

باسيل مجتمعاً إلى سفير سورية

سنوات وحقق جيشها وشعبها وقيادتها أعلى درجات النجاح في مواجهة الإرهاب المتعدد الجنسيات الذي استقدم من أربع رياح الأرض واستخدمت فيه كل وسائل التضليل والتخريف والمال السياسي الفاجر». وسئل السفير السوري ما إذا كانت سورية سترد، من جهتها، على عملية القنيطرة أم أنها ستكتفي برّد حزب الله، فأجاب: «إنّ الردّ قائم، ولم تكف. فعندما تضرب العشرات من النصرة ومن داعش ويطوّقون، فإننا تضرب أيضاً الجيش الإسرائيلي لأنّ هؤلاء هم امداد له».

وكان باسيل استقبل المدير العام للأمن العام اللواء عباس إبراهيم الذي قال رداً على سؤال عما إذا كانت قضية العسكريين المحطوفين وصلت إلى خواتيمها: «بعد بكثر».